المثل الأعلى للزوجية

بقلم الأستاذ مصطفى جاد أبو العلا
دبلوم دار العلوم

الزواج وعلاقته بالمجتمع :

الزواج : هو الوسيلة إلى تكوين العائلة ؛ ولما كانت العائلة هى نواة الهيأة الاجتماعية ، فان كل ما يمس شرائع الزواج وعاداته يمس أساس النظام الاجتماعى .

ولما كنا أيضاً نعيش فى زمن قد تزعزعت فيه العادات والعقائد إلى حد كبير ، ودخل الشك فى جميع طرائق العيش والنظر والتفكير ، حتى صار كل شاب يشعر كأنه يبتكر طريقة جديدة فى الحياة ويتساءل عن معنى السعادة وقيمة الحب ، فان البحث فى الزواج قد أصبح من الموضوعات التى تشغل بال الكثيرين، ممن يهمهم مصير الحضارة الراهنة .

ولم يكن من الغريب أن يشمل التنبه العام الذى يجعل الأمم والأفراد تفكر فى جميع الأنظمة الاجتماعية « هذه العلاقة الزوجية » بل يشرع بعضها فى تجارب جديدة بغية الوصول إلى أحسن الحالات التى تستقر فيها العائلة، وهذه التجارب ، مع مافيها من فوضى وتخبط ، هى دليل الحياة والرغبة فى الأصلاح ؛ فالتفكير وابتكار الطرق الجديدة ، مع مافيها من التعرض للخطأ ، خير من الاستسلام والاستنامة للعادات القديمة ، والعرف السائر.

وفوق ذلك فهو حالة دعت إليها طبيعة البشر ، ففرضتها الشرائع الالهية ، وهو سنة الله فى خلقه لدوام العمران ، بل فرض على كل إنسان ، لأنه مكمل لنقصه ، حافظ لكيانه ، صائن لكرامته وشرفه ، فهو إذن رباط دينى طبعى مدنى صحى ، وقد اتفقت الشرائع والأديان كافة على ضرورته لاقامة صرح العائلة ، وحفظ النوع البشرى من الانقراض، وصون الانسان من الخطيئة والذنوب، وإيجاد التآلف والارتباط بين أفراد ذلك النوع ، وقد قال تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ومعنى السكون فى الآية الكريمة : الأنس بهن ، والاعتماد عليهن فى جلب المنافع ودفع المضار ، وتوثيق عاطفة المودة والرحمة ، حتى يكون من ثمرة ذلك كله ، النسل الذى عليه مدار الاجتماع الانسانى ، فهو

العامل الطبيعى الأول لتكوين «الأسرة» رأس العمران الذى لولاه لاختل نظام الكون ، وانقرض عقد نظامه.

والأسرة : كلمة صغيرة المبنى ، إلا أنها كبيرة المعنى عند علماء العمران ، إذ فيها تندمج معانى المدنية والارتقاء والنظام ، والطبيعة البشرية باعثة للانسان على الزواج لما ثبت فى نفسه من الشعور بالحاجة إلى شريكة تقاسمه نعيم الحياة وبؤسها ، ومثل هذا الشعور فى المرأة يدفعها إلى التماس الرجل تتخذه عونا وأزرا لها فى الملمات ، وسنداً تطمئن إليه فى مشاق الحياة ، ومن ثم تتكون فكرة الارتباط بين الزوجين : فيمتزج كلاهما بالآخر قلباً وقالبا ، وتتجلى فيهما معنى الانسانية الصحيحة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

بالزواج يجد الزوج من زوجه خير رفيق فى الحياة يشاطره السراء والضراء ، ويصون نفسه وعرضه وماله وصحته ، ويخلد بأبنائه منهـا ذكراه فى هذه الحياة ، وغير ذلك فهو عقد شريف تتوثق به أركان الهيئة الاجتماعية ، وتقوم على أساسه الحضارة والعمران ، فالزواج والحضارة متلازمان ، وكلما اشتدت روابط الزوجية تضاعفت العوامل الباعثة على الحضارة والارتقاء.

وقد فك الزواج عن النساء قيود الذل والاستعباد ، وأنقذهن من ويلات السقوط ، فقسم الناس (وكانوا جمعاً واحداً) إلى أسر يتميز بعضها عن بعض ، وأوجد الشاكم المنزلية ، وربى رجالا فى البلاد ، ومد أنظار الناس إلى المستقبل بما بثه فيهم من الميل إلى ذريتهم ، وزاد عطف الأفراد بعضهم على بعض ، وهو يكسب الرجل الشهامة وكظم الغيظ والرزانة وسرعة الخاطر وقوة الفهم وحدة الذهن والحزم والعزم والاقدام والاعتماد على النفس فى الحياة ، كما يبعث فى المرأة الهمة والنشاط والغيرة والعفة وحسن المعاشرة .

لولا الزواج لما كنا ولا كانت هذى البلاد ولا شيدت مبانيها
إن الزواج يصون النفس يعصمها عما يحيط بليلاها ويزريها

وقد قال ابقراط : « الزواج مصدر آداب المجتمع الانسانى » وقد قال تلر « الزواج قوام العالم ، وهو الذى يبنى المدن ويملأ البيوت والمعابد » وقال مونتنى « فى الزواج الفائدة والعدل والشرف والثبات وهو شركة جليلة المنافع لقيامها على العهود المتبادلة » :

الخطبة

إذا كان الزواج من الخطورة فى الحياة بمكان ، فلا بد أن يعتنى باختيار الحجر الأول للأساس حتى تكون حياتنا مشيدة على صرح ممرد ، وهو كتاب ومقدمته الخطبة.

وقبل أن نتكلم فى الخطبة نأتى بلمحة من عاداتنا المتبعة فيها.

أول تلك العادات التى طالما أفسدت علينا أمر مستقبلنا ، هو أن تذهب أم الزوج أو أخته أو الخاطبة

المأجورة إلى بيت « العروس » ، ومن المعلوم أن الأم أو الأخت مثلا لايهمها إلا أن الزوجة تحسن الطهي مثلا، أو شعرها جميل، أو عيونها دعجاء، أو جسمها خصب،وهكذا،ولا تنظر إلى إلى ماوراء ذلك مما عليه دعامة الأسرة من الأخلاق الفاضلة، والتربية الحقة، والآداب الكاملة، وفوق ذلك لايمكنها أن تحكم على وفق ميول الزوجين حتى ينتهى هذا الزواج بالسعادة، كذلك الخاطبة المأجورة لايهمها إلا ماتتقاضاه من الأجر، فتذهب إلى منزل « العروس » ترغبها وآلها فى الزوج مهما كان منظره أو كانت طباعه أو أخلاقه، حتى تكسب رضاهم جميعاً على هذا الزوج ؛ ثم تعود وتحمل للزوج من الألفاظ الطلية والقول المزخرف ؛ مايجعل الزوج يقدم على هذا الزواج الذى ربما يكون نواة شقائه،وسبب تعاسته، وانهيار مستقبله؛ وهو الغالب،وقد قيل « ما كل راء خاطباً، وما كل خاطب جادا فى خطبته » فما أغرب القاعدة التى نسير عليها فى مسألة الزواج فى وقتنا الحاضر!ما أغربها لأننا مع استقباحنا الغش واستنكارنا له نجعله أس صرح الزواج ، وكثيرون عندنا ذهبوا ضحية هذا الغش، فقضى عليهم قضاء لايفرق بينه عن القتل،والغشاشون الجناة لايبالون بجريمة ولا يؤاخذون بذنب .

فطريقتنا هذه فى الزواج مجحفة بحقوق الزوجين ، وهل عادة أقبح من أن يساوم فرد آخر على حرية شخص، على أن تنتهى هذه المساومة باجتماع شخصين معاً فى مسكن واحد قبل أن يرى أحدهما الآخر ، أو يعرف شيئاً عن أخلاقه وعاداته؟!

لقد أباح الشرع الشريف لنا أن يخطب الرجل زوجه ويبصر مخطوبته، والنظر رسول القلب، والاستحسان علة الحب، والحب علة ذلك الكنز الذى هو ركن السعادة وسر حقيقة الزوجية ، وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة حين خطب امرأة « أنظرت إليها؟ » أجاب: لا : فقال عليه السلام« انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أن النظر خليق بأن يصلح بينكما ليدوم بينكما الوفاق : فاذا لم ترق المخطوبة فى عين خطيبها بعد رؤيتها ، وامتنع عن الاقتران بها فماذا يكون الحال ؟ الجواب : يجب ألا تشهر الخطبة قبل الزواج .

كيف يخطب الرجل قرينته ؟

لهذه المناسبة يستحسن أن أقول: إن الشريعة السمحاء لم تبح معاشرة الرجل خطيبته للوقوف على طباعها وأخلاقها وعاداتها كما يفعل الغربيون قبل العقد الشرعى،وذلك خشية الفتنة ، ومع هذا، فالمعاشرة قبل الزواج لاتكشف اللثام عن حقيقة الأخلاق والطباع، لأن الفتاة إذا كانت بمرأى ومسمع من خطيبها، تتكلف الظهور أمامه بالمظهر الذى تتوقع أنه يرضيه: كما يحاول هو أيضاً التجمل بالصفات الحميدة ليروق فى نظرها ، فاذا ماتم الزواج ارتفع الستار عن الأخلاق الحقيقية، وانكشف الطلاء الذهبى عن خبث الحديد، وهنا يقعان فى شرك البؤس والشقاء : فالشريعة حقاً قضت بما فيه مصلحة الفريقين؛ولكنى لا أزال أعتقد بأن السماح برؤية المخطوبة

لايفيد كثيراً؛ لأن للرؤية نظراً خادعاً فى بعض الأحيان، كما أن استحسان الصور فى تخير الأزواج لايكفى، وخصوصاً أن الزواج فى العادة يعقد فى سن الشباب، وهى السن التى تتأجج فيها العواطف والشهوات. والشاب كثيراً ما يعتقد أن السعادة لاتكون إلا بالحب، وهو بالطبع قد يحب لنظرة، وهذا اعتقاد صالح، فإن الحب جوهر لايخلو منه قلب بشر، لأنه كون بوساطته، وهو من أشرف العواطف التى تهذب بها النفس، ومن أكبر المؤثرات على قلب المحب وأخلاقه وميوله، حتى أن هذا السر العجيب الذى يدعونه «حبا» قد يجعل الشرس وديعاً، والقاسى حنوناً شفيقاً، والمتسلب ملايناً، والمحارب مسالماً، وهو جوهر يمتاز به الانسان عن كل مخلوق فى الوجود إن لم يدنسه ويلقه فى الأقذار.

والفضل لمن بدد عن حبه غيوم الفساد، وجعله يظهر للعموم بنوره المتلألىء، والواقع أن السعادة لاتكون فى شىء من الأشياء: فى الزواج، أو العمل، أو المعيشة، أو غيرها حتى تشعر فيها بالرقى المتواصل، وترقى منها إلى هذا الرقى، شاهدنا فى ارتقاء فنحن فى تطور هائلين بهذا التطور الذى هو لباب النفس الانسانية.

ولذلك فإن الحب يثبت ويبقى إذا كان مقروناً إلى التبعات التى يتطلبها الرقى، فهذه التبعات تغذوه وتبقيه وتنمى به، وهذه التبعات هى التى تلجئنى إلى استباحة الشريعة السمحة بالمعاشرة قبل العقد الشرعى، وإلى جانب هذه التبعات عدم علم المخطوبة بأن هذا الشاب يريد الاقتران بها، وبذلك يتمكن من عجم عود أخلاقها، ودرس آدابها، وتربيتها، وعاداتها، فلا تتكلف خلاف طبيعتها التى فطرت عليها، وما دام الشاب متيقظاً إلى هذه التبعات، ويقدر مستقبله، لا يمكن أن تتطلع نفسه إلى مادون ذلك من خيانة، حتى يعيث بعفاف الفتاة كما يظنه البعض بسبب الاختلاط قبل العقد الشرعى، وعلى ذلك لانخشى الفتنة التى يحذرنا الشرع منها من يريد الزواج حقاً.

وإن تكلمت الآن لاأتكلم إلا عن شخص طاهر النفس، كريم المعتقد يريد مستقبلا زاهرا لا تشوبه شائبة أو تمسه غبار.

ونستدل على مسئولية التبعات وأهميتها بمقارنة هاتين الدولتين:

الزواج الفرنسى، مع أنه لا يقوم على الحب بل ينطوى فى الأكثر على اعتبارات مالية، يعيش ويدوم أكثر من الزواج الروسى القائم على الحب، أو ما يعتقده الشاب الروسى أنه حب، وذلك لأن المتزوجين فى فرنسا يرميان من زواجهما إلى تأسيس أسرة يشتركان فى تقويمها ودعمها بالمال، فإذا لم يكن بينهما حب فهذا الاشتراك فى القصد والوسيلة يربطهما مدى الحياة، ولست بذلك أنقص قيمة الحب، بل أعنى أن الشاب كثيراً ما يخطىء معناه وينظر إليه باعتباره جوعاً جنسياً، وهو بهذا الاعتبار سريع الفناء لايثبت عليه بناء الأسرة، أما إذا نظر إليه كوسيلة للرقى، لها تبعاتها، فإنه بلا شك يكون من أوكد الوسائل لتحقيق السعادة.

وبجانب ماتقدم لاننسى أن استشارة البنت حق من حقوقها قبل زواجها، ولكن الكثيرين يزوجون بناتهم من يشاءون، مخدوعين بالأحوال الظاهرة والدراهم الوفيرة، غير مراعين النسبة بين الزوجين، فيقذفون ببناتهم فى هذه التعاسة والشقاء، ويسدون فى وجوههن أبواب الراحة والهناءة، ويميتون فى نفوسهن روح العمل، بل وما انبث فيها من العواطف بالتربية القويمة، فتصبح الفتاة المسكينة كحبة زرعت فى أرض مجدبة، أو فى غير أوانها: فلا نبات ينبت، ولا ثمرة ترتجى، وسرعان ما ترى الخلاف حل محل الائتلاف.

الزواج أمر خطير الشأن، كما قيل « الزواج حياة أو موت، وليس هناك بين بين » يجب الامعان فيه قبل الاقدام عليه، والزواج الذى يبنى على غايات وما رب، ولا ينظر فيه إلى ائتلاف قلبى الزوجين هو زواج فاسد، وغير ذلك فان الزواج القهرى الذى تذهب إليه الفتاة أو الفتى انصياعا لأمر الآباء أو أحد الآل ليس بزواج، بل هو علة ومرض يتقوض بناؤه بزوال ذلك الغرض، بل هو المصيبة الدهماء فى الليلة الظلماء.

إن للآباء حقاً على البنين، لكن لذلك الحق روابط وحدوداً، حقا إن للآبوين سلطة تخولهما تسيير أبنائهم فى الطريق التى يستحسنونها، ولكن من الشروط اللازمة أن يكون لهما خبرة ودراية وحكمة يعرفان بها كيفية التأثير على ميول الأبناء وعواطفهم، ويجب أن يخضع الأبناء لتلك السلطة طالما الوالدان يقدمان الواجب على العاطفة، وطالما يحكمان عن ضمير حى، ووجدان سليم: نرى الشاب يبحث عن فتاة توافقه ليجعلها رفيقة حياته فيجدها، لكنه لا يأمن قبول والدته لها مثلا، لأن تلك الوالدة تكون قد عرفت فتاة بشت لها وترددت إليها، مظهرة لها خضوعاً وانقياداً، وما أكثر اغترار أمهات الشبان بزلفات البنات الطامعات فى رضاهن، ولا يلبث الولد أن يدلن لوالدته رغبته فى الزواج ممن اختارها لنفسه رفيقة، حتى تهب لتبيان نقائص تلك التى اختارها، حتى ولو لم يكن فيها نقيصة، وعبثاً يحاول إقناع والدته وحملها على الرجوع عن حكمها، فيجب على ذوى الأمور أن يمنحوا أبناءهم حرية الاستشارة حتى يتم بين الزوجين الوفاق، كما أنه يجب على البنت أن تكون صريحة وإلا ساء المآل.

إن أرغموك على زواج فاسد ذرهم فصفو المرغمين شقاء
ولتذكرن العلم إثر عفافها ولتنبذن المال فهو هواء

مصطفى جاد أبو الهلا